

الباب التاسع

التربية في القرن الثامن عشر

وصف الأحوال الاجتماعية في ذلك العصر

في أواخر القرن السابع عشر، وكذلك في أكثر القرن الذي تلاه، ساد البلاد حركة دينية ظاهرية، فأخذ الكتاب والفلاسفة يبذلون الوسع في إعلاء شأن الكنيسة، وينفقون بلاغتهم في تمجيد الدين، فامتألت كتب النثر بالآداب الدينية، وفاضت بها أحاديث الأنديّة، وأخذ الناس يراعون النظم الكنسية أشد المراقبة، غير أن هذا الغلو في الدين لم يكن منبعثاً عن عقيدة راسخة في النفس، ولا مصحوباً بشيء من الإخلاص، وإنما كان محض رياء يشف عما تحمته من فجور ودهاء، وقد دعا الناس إلى هذا الاتفاق رغبتهم في التقرب والرفق من الملوك الذين كانوا في ذلك الوقت حماة الكنيسة يعاضدونهم، ويحاربون من خرج عليها أو حاذ عن تقاليد المألوفة.

لم يكن ذلك كل ما حل بالبلاد من ضروب الفساد، فقد طغى الملوك واستبدوا بالرعية وقيدوا حرية الأفراد في كل وجه من وجوه الحياة، فلم يتركوا لهم سياسة ولا ديناً ولا فكراً ولا عملاً إلا رسموا لهم فيه خطاً خاصة، قيدوهم بها تقيداً وألزموهم باتباعها إلزاماً.

مخاربة الاستبداد

ظل الناس يرسفون في أغلال الاستبداد أزماناً، ويعانون من جور ما قصم ظهورهم، ومملك عليهم أمورهم، إلا أن بقاء الحال من الحال، فقد كانت حياة هذا الاستبداد معقودة بخلو البلاد من الزعماء الذين ملئوا بغيرة وحماسة، وأشربوا في قلوبهم الحرية والصراحة في الفكر والقول، ولذلك حالت الأحوال في القرن الثامن عشر حين بفت

الملوك ورجال الحكم في البلاد رجالٌ عشقوا الحرية عشقاً، ومقتوا سيطرة الفرد مقتاً، وهان عليهم بذل النفس في سبيل تحرير الفكر وفك أغلاله، فنادوا جهاراً ببيادتهم، وطعنوا على التقاليد السائدة في أوقاتهم، وثاروا ثورة نزعوا بها من أعناقهم أغلال الاستبداد، وألقوا عن كواهم أثقال السيطرة المطلقة، ودعوا إلى التسامح في الدين والحرية في التفكير، فارتاحت نفوس القوم إلى هذه الحركة المباركة، وناصروها في كل مكان، وقد انقسمت هذه الحركة من مبدئها إلى حركتين : -

الأولى : الحركة العقلية التي تعلی من شأن العقل وتدعو إلى الثقة به والاستناد إليه في كل شأن من شئون الحياة، وقائدها « فُلْتِير » (١٦٩٤ - ١٧٧٨)
الثانية : الحركة الطبيعية التي تجعل للعواطف وهوى النفوس المحل الأول، وتعدّها الأساس الصحيح الذي يجب أن تقوم عليه شئون التربية والاجتماع، وقائدها « رُوسو » (١٧١٢ - ١٧٧٨) .

والحركتان وإن اتفقتا في كثير من الوجوه تختلفان من وجوه أخرى نفصلاً فيما يأتي :
(١) كانت الحركة الأولى في النصف الأول من القرن الثامن عشر، تصرف أكثر جهدها في الطعن على الكنيسة والعقائد الدينية - أما الحركة الثانية في النصف الثاني من ذلك القرن، فقد كان نقدها وقدحها موجهين إلى مثالب السياسة والحياة الاجتماعية .
(٢) كان الغرض من الحركة الأولى ينحصر في القضاء على المساوي والمخازي السائدة في زمنها، أما الحركة الثانية فقد كانت ترمي فوق ذلك إلى وضع نظام يكون مثلاً أعلى للحياة الاجتماعية .

(٣) كانت الحركة الأولى تمجد من شأن العقل وتدعو إلى الثقة به في شئون الدين والدنيا . أما الحركة الثانية فقد ذهبت إلى أن العقل الانساني كثير الزلل لا يصلح الاستناد اليه في شئون الحياة، وأن الوجدان والعواطف القلبية هي آثار الطبيعة الصحيحة، وهي التي يجب أن يسترشد بهديها في كل ما يجب من القول والعمل .

(٤) كانت الحركة الأولى حركة أشراف امتازوا بثراتهم ومواهبهم العقلية، فعنوا بأنفسهم كل العناية . وعملوا على نقل السيطرة من أيدي رجال الدين إلى رجال العلم،

والذكاء، وتركوا سائر الشعب يتقلب في فراش الذل والاستعباد. أما الحركة الثانية فقد كانت تعمل على إسماعاد العامة، ولا تدخر وسعاً في النظر في شئونهم وإصلاح أحوالهم. (٥) كان فلتير زعيم الحركة الأولى، وروسو قائد الثانية. ومن قرأ تاريخ الرجائين عرف السر في اختلافهما وذهابهما مذهبين مختلفين، فقد كان كلاهما يمثل طرفاً من الحياة مناقضاً للطرف الذي يمثله صاحبه. كان فلتير غنياً ومن طائفة الأمراء والأشراف في حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب. وكان « فلتير » قليل العطف على البائسين والفقراء في حين كان « روسو » نصيرهم، يرثى لحالهم، ويعمل على إسماعادهم، لأنه كان منهم. وكان « فلتير » ممتازاً بقوة ذكائه، وغزارة علمه، ورجاحة عقله، يرى وجوب الثقة بالعقل والاعتماد عليه، في حين كان « روسو » منقاداً لعواطفه، مسوقاً بوجوده، يرى أن استرشاد الانسان بشعوره القلبي أفضل له من الثقة بعقله. قال بعض المؤرخين (إذا كان السر في عظمة فلتير أنه كان يجهر بما يفكر فيه الناس جميعاً، فإن السر في عظمة روسو أنه كان يجهر بما يشعر به الناس جميعاً) .

(٦) بقي هناك فرق سادس بين الحركتين يظهر في موقف كل من الزعيمين حيال الدين. فأما فلتير فمأخذ لا يرضى بدين، وقد ذهب إلى أن الأديان جميعها أنواع من المكر والخداع يأتي بها القساوسة والرهبان، ويقصدون منها تضليل العامة وإخضاعهم لسيطرتهم الباطلة. أما روسو فعلى العكس من ذلك له دين يسير على هداه، وقد أبي أن يكون ملحداً كصاحبه، غير أنه يرفض المعتقدات الكنسية القديمة، ويعدها خرافات وأباطيل، وقد وضع ديناً سماه الدين الطبيعي جمع فيه آداب المسيحية الصحيحة، وأعرض فيه كل الإعراض عما حوته الأديان من المعجزات وخوارق العادات.

التربية الطبيعية

يراد بالتربية الطبيعية نوع من التربية يدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طباعه ويلائم ميوله ورغباته، ويحث على تشجيع غرائزه وإعطائه اكبر نصيب مستطاع من الحرية، ويعمل على تمجيد الطبيعة وتقوية صلة النشء بها وبما حوته من حيوان ونبات وجهاد. ومن اكبر زعماء هذه التربية روسو وبرزداو، ولترجم لكل منهما ترجمة تففك على آرائه ومبادئه.

(١) جان چاك زوسو

بطل من أبطال الحرية ، وزعيم من زعماء الدعوة إلى المساواة ، وعامل من عوامل الثورة الفرنسية ، وإمام عظيم من أئمة التربية ، نشأ فقيراً ، وعاش فقيراً ، وظل إلى سن الأربعين وهو على مضض من ترف الأغنياء واستئثارهم بالسيطرة . ولما غلت مراحل حقه عليهم وضاق ذرعاً باحتمال ضغنه ، ثار ثورته المشهورة ، وقام قيامته المعروفة في وجه الترف . فدعا إلى المساواة ، ونادى بالرجوع إلى الحالة الطبيعية ، فكان نداؤه حاراً ارتاع لبقوته المترفون ، وتأثر به نظام الملك والسياسة والاجتماع ، فلا غرو أن أصبح بذلك بطلاً من أبطال التاريخ ، ودعامة من دعائم الإصلاح . قال نابليون : « لولا رُوسو لما قامت الثورة الفرنسية التي تغير لها نظام الملك ، واهتزت من أجلها عروش الممالك في المشارق والمغارب » .

أما التربية فقد شهدت من آثاره وأعماله ما لم ترمثه على أيدي المربين قبله أو بعده ، وله فيها آراء صائبة وأقوال مأثورة مشهورة ، وكتب رسائل سيأتي لك بيانها مسهباً .

مولده : ولد روسو سنة ١٧١٢ بمدينة « جنيف » من أعمال سويسرا ، وكانت في ذلك العصر مدينة العلم ، وميدان المفكرين ، وعش المصلحين ، فيها للآداب العالية دولة ، وللحياة الفاضلة والأخلاق الرفيعة صولة ، حكومة حرة ، وفكر مطلق ، وعيشة بدوية . أما باريس - وهي موطنه الثاني وعشه الذي انتقل إليه فيما بعد - فقد كانت على النقيض من ذلك ، كانت بلدة مترفة مترعة بالملاهي ، قد فشت فيها الأخلاق الفاسدة . وعم أهلها الرياء والنفاق ، واستبد فيها الملوك والأشراف استبداداً ، وأزهقوا العامة والسوقة إرهاباً . ولد من أبوين كانا من متوسطي الناس حالاً هما « اسحق روسو » ، وكان صانع ساعات ومعلم رقص ؛ و « سوزان برنار » ، وكانت جميلة أديبة مشغوفة بالموسيقى ، وقد ورث هذا الوليد صفات أبويه كاملة ، فورث عن أبيه الخيال الشارد وخفة الروح والميل إلى الكسل والاندفاع في حب الشهوات وقلة الاعتداد بالفضائل ، وورث عن أمه الطبع الدنف ، والوجدان القوى ، والعواطف الرقيقة ، والحياء الشديد .

تربيته : قام بتربيته في أول أمره والده إسحق ، فعلمه القراءة في السادسة من عمره ، إلا أنه لم يتوخ أصلح الكتب للمطالعة ، فأقبل به على قراءة الروايات والأقاصيص الخيالية ، فكان ذلك سبباً من الأسباب التي قوّت في الغلام خياله الشارد ، وأبعدته عن الوقوف عند الحقائق ، ثم انتقلت تربيته بعد ذلك بقليل من يد والده الى أيدي آخرين لهم خبرة أوسع بأساليب التعليم ، إلا أن العناية به كانت قليلة ، فلم تنجع في تغيير طبائعه وخلائقه التي تكونت في السنوات الأولى .

ولما بلغ الثانية عشرة أرسله أهله وذوو قرابته الى صناعات مختلفين ، ليتخرج في صناعاتهم ومنهم ، فلم يصبر على صناعة منها لطيشه وعنف معاميه ، فقد أرسله خاله في بادئ الأمر الى أحد الكتاب العموميين ليأخذ عنه الحرفة ، فأظهر فيها من التباطؤ والبلادة ما اضطر معامه الى طرده ، فأرسله مرة أخرى الى نقاش ليأخذ عنه حرفة النقش ، فأحس الغلام ميلاً الى هذه الحرفة ، إلا أن معامه كان فظاً غليظاً يرى إرهاباً الأحداث بأنواع العقاب خير وسيلة لتعليمهم ، ولذلك أنزل بالوليد من العذاب ما لم يطقه ، فكرهه اليه الصناعة ودعاه الى الفرار والهرب منه . ثم تنقل في صناعات أخرى وخدمات كثيرة ، وفي كل ذلك كان مختلطاً باخوان السوء ورفاق الشر ، فانتقلت اليه سوءاتهم ، ولم يستفد من تجاربه هذه سوى انحطاط الآداب ، وفساد الأخلاق ، ولم يجن منها على حسب اعترافه سوى الكسل والخيانة ، والكذب والسرقة ، والجبن وغيرها من المعاييب والمخازي التي بقيت معه الى حدٍّ ما جميع أيامه .

بقي جان چاك في مدينة جنيف حتى بلغ السادسة عشرة من عمره ، وكان طول إقامته بها يخرج الى الغابات والحقول فيملاً ناظريه من مشاهد الطبيعة التي أغرم بها إغراماً ، حتى لقد أنساه غرامه بالطبيعة في كثير من الأحيان أن يعود الى المدينة قبل إغلاق أبوابها ، وكثيراً ما عاد متأخراً فوجد الأبواب مغلقة فلم يستطع الدخول ، وهنا كان يلاقى من معاميه صنوف البلاء وأنواع العذاب . اتفق له مرة أن رجع من الغابة قاصداً المدينة فوجد أبوابها توصد في وجهه ، فاغتم لذلك وحلف لارجع إلى المدينة ولا

رأى أهلها ، وغادر « جنيف » هائماً على وجهه يضرب في بلاد الله على غير هدى ، وكان
إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره .

تجاربه وسوء حظ في الحياة

ترك هذا الطريق مدينة « جنيف » وظل يتنقل من بلد الى آخر يقدر لمستقبله ،
ويبحث عن عمل يكسب به قوته ، ففكر أولاً في احتراف صناعة النقش ، إلا أنه لم
يصادف في ذلك نجاحاً ، فعرض نفسه لخدمات صغيرة حقيرة مذلة ، ومع هذا كانت
الخيبة تتبعه في كل منزل أو حانوت يخدم فيه ، إما لسوء سلوكه وانقياده لشهواته
وأهوائه ، وإما لشروء خياله وقلة صبره وعدم ثباته على حال .

في سنة ١٧٤١ عزم على السفر الى باريس عساه أن يجد فيها حظاً أسعد وحالاً
أحسن ، فسار اليها يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة ومشاهدها الخلابة ، ومعه دريهمات
قليلة تعينه على سفره ، ورسائل توصية لأناس معروفين في العاصمة ، وخبرة قليلة بفن
الموسيقى ، ومقترحات ضئيلة بطرائق رقصها ظنها كافية لإحراز غاية عالية بين أهل الفن
هناك ، وما كاد يصل إلى المدينة حتى أسرع الى تقديم رسائل التوصية وعرض مقترحاته
في رقم الموسيقى ، فلم تصادف في المجامع العلمية قبولا ، فعاد كاسف البال يذرف الدموع
على إنفاق أوقاته سدى ، إلا أنه مع ذلك تمت له مودة قوم من ذوى الرأى هناك
ساعدوه في الحصول على عمل يعيش منه في رخاء وسعة .

كان روسو في كل أدوار حياته لا ينصرف عن القراءة والاستفادة ممن يتصل بهم
اتصال خدمة أو مودة ، فنمت لذلك معارفه واتسعت مداركه ، وعظمت مقدرته العلمية
والفنية ، حتى أعده ذلك للمكان الذي تبوأه في عالم الأدب بعد ذلك ، وهياً له السبيل
للعظمة التي صادفته في آخر حياته .

أثر الحياة التي عاشها في تكوين آرائه

إن السبب الذي من أجله تتبعنا حياة روسو على النحو المتقدم ، هو أننا أردنا أن
نبين للقارئ كيف كانت آراؤه وأفكاره في التربية نتيجة الحياة التي عاشها ، والتجارب

التي صادفها منذ أيام طفولته ، فقد رأيت فيما مرّ عليك كيف كان جانب الوجدان عنده يغلب جانب الفكر والتعقل ، وكيف كانت لرغباته وميوله الطبيعية سيادة وسلطان عليه . وإنك لو قرأت كتبه واستقصيت مذاهبه ، لرأيت آثار هذه الحياة جلية ظاهرة في آرائه وأفكاره . تراه دائماً يرشد الى متابعة الوجدان والالتقياد اليه ، ويدعو الى مطالعة العواطف والنزول على حكمها في كل شأن من الشؤون . كذلك كان من نتائج حياته التي عاشها ، أن جهر بأن الأفكار الدينية والخالقية لا مكان لها في أيام الطفولة ، وأن العقل يستفيد من مطالعة الطبيعة واجتلاء مشاهداتها أكثر مما يستفيد من مطالعة الكتب وعشرة العقلاء ، وجهر أيضاً بأن نشأة القوى الإنسانية نشأة صحيحة كاملة إنما تكون بتشجيع الغرائز على إظهار آثارها ورفع العوائق التي تقطع عليها طريق الحرية الكاملة .



جان چاك روسو
(١٧١٢ - ١٧٧٨)

رسائله وكتبه :

في سنة ١٧٤٩ رأى عرضاً في مجلة فرنسية موضوعاً طرحه المجمع العلمي في « ديجون » ليتنافس فيه من يطعم في جائزته من الكتاب ، وقد كان الموضوع عن أثر العلوم والفنون في حياة الانسان ، وما كاد ينتهي من قراءته حتى تاقته نفسه الى الدخول في زمرة المتنافسين ، فدخل مملوءاً بأفكار ومعان تواردت عليه ، وذهب إلى أن العلوم والفنون أسباب شقاء وعوامل إفساد للإنسان ، وأنه

لا سعادة له إلا بتركها والرجوع إلى الحالة الطبيعية حالة الجهالة المطلقة، والحياة الساذجة .
ولقد طعن على العلوم والفنون بأنها تزيد في ترف الانسان زيادة تلتج الرذائل ،
وتضعف النفوس ، وتذهب بحريتها . ولقد ضرب المثل في ذلك بالمصريين فاتهم كانوا
أصحاب بأس وقوة وحرية ، وما كاد العلم يسطع نوره بينهم حتى ذهبت منهم خلال
الخير ، وفشت فيهم ألوان الشر ، وظهرت عليهم دلائل الضعف والانحلال ، فأغارت
عليهم الأمم المجاورة ، وذهب ملكهم فيما ذهب .

ولقد كتب روسو مقاله هذا ، بحرارة ثورية ، وإيمان صادق ، وأسلوب قوى لم
يعهد مثله من قبل ، فكان ذلك إلى وصفه أدواء جماعة الإنسان في وقته ، وظلم
الناس إلى مثل هذه الكتابة ، من أقوى عوامل نجاحه . وما كاد مقاله ينشر حتى حاز
إعجاب القارئین ، ونال جائزة المجمع العلمي في « ديجون » . وهكذا أصبح روسو في
لحظة واحدة ذا مكانة عالية بين الأدباء والكتاب الفرنسيين ، وأضحى يشار إليه
بالبنان في كل مكان .

في سنة ١٧٥٣ عرض المجمع العلمي في ديجون مسألة ثانية للكتاب ، ودعاهم إلى
التنافس فيها وإحراز جائزتها . ذلك أنه طلب إليهم أن يشرحوا أصول عدم المساواة
بين الناس ، وأن يبينوا هل يرضى القانون الطبيعي بعدم المساواة ؟ فكان روسو أسبق
الكتاب إلى إجابة الدعوة ، فتناول قلمه ووصف أحوال الاجتماع في العصور الأولى
من التاريخ وصفاً خيالياً ، فإذا الناس فيها سعداء ممتعون بنعيم الجهالة ، لا يشغل باطم
طمع ، ولا يفكر واحد منهم في غيره ، ثم قال ما معناه « لو أن السعادة كتبت للناس
لظلوا على حالتهم الأولى بعيدين عن كل مدنية وترف ، وللبشوا في أحضان الطبيعة
جهلاء مستوحشين » . ومن هنا قرر أن المدنية هي أصل عدم المساواة وأنها هي التي
أنتجت الشقاء الذي يثقل فيه الانسان في هذه الأزمان . وأصل المدنية عنده الفكر ،
فهو أصل البلاء وأساس المصائب .

ولقد صاح روسو في مقاله هذا ضد الملكية صيحة مهدت السبيل للمذاهب الاشتراكية ،
وذهب إلى أن كل ثروة يقتنيها فرد من الناس إنما هي جناية يجنيها على الانسانية ،
تاريخ التربية (٣٧)

ويذلل بها غيره من أبناء جنسه . وقد جهر فوق ذلك بأن الحكومات لم تكن إلا أنواعاً من مظاهر الظلم والعسف ، وأن القوانين الاجتماعية كلها ظالمة غير عادلة . أتبع روسو مقاله الثاني في عدم المساواة بمقال سياسي خطير أسماه « العقد الاجتماعي » ، وأودعه من الأفكار والآراء ما أثار الحية في قلوب القارئ ، ومهد السبيل لأعظم ثورة في تاريخ الفرنسيين ، وقرر فيه أن الحكومة نتيجة تعاقد بين الناس يُعطى فريقاً منهم حق الحكم ، ويوجب على الآخرين أن يقدموا للفريق الحاكم ما يصلح أن يكون جزاءً لخدمته ، وإذا كانت الحكومة قد قامت على اتفاق وتعاقد بين الطرفين ، فإنها تنحل متى زال الوفاق .

بعد أن ظهر كتاب العقد الاجتماعي بشهرين ظهر كتابه « اميل » ، وهو أعظم كتبه خطراً وقد أودعه جميع آرائه ومذاهبه في التعليم . وقد أحدث هذا الكتاب عصراً جديداً في التربية وشغل أفكار المربين زمنًا طويلاً في جميع أنحاء القارة الأوروبية . قيل إن الفيلسوف « كانت » الألماني قد انكب على قراءته واستهواه ما فيه من الفعكر السديد والرأى الناضج ، حتى لقد أنساه ذلك أن يجري على مألوفه وعادته في الخروج للنزهة كل يوم .

كتاب اميل والتربية الطبيعية

في هذا الكتاب يشرح روسو حقيقة التربية الطبيعية ^(١) ، ويفصل مبادئه ومذاهبه في تربية الأحداث تفصيلاً ، وينادى بأخذ الطفل من أبويه وإبعاده عن المدارس

(١) وردت كلمة الطبيعة في كتاب إميل مراراً وتكراراً ، وقد استعملها روسو كما استعملها غيره من الكتاب استعمالاً غامضاً ، إلا أنا إذا تدبرنا معانيه وتبيننا أغراضه ، رأيناه قد استعملها في معانٍ مختلفة ، فتارة يريد بهما جبل عليه الانسان من الغرائز والوجدانات والعواطف والمبول ، فاذا نادى روسو بوجوب استماع الانسان لطبيعته ، فمعي هذا أن يعمل الرجل على حسب ما يدعو اليه وجدانه وترشد اليه عواطفه ، وذلك في رأى روسو خير له من التفكير ومطالمة العقل ، بل خير له من الرجوع الى التجارب المستفادة من المخالطة والمداشرة

وتارة يريد بالطبيعة ما في الوجود من جاد ونبات وحيوان ، فاذا ذكر التربية الطبيعية الفاضلة ، فإنه يريد بها تلك التربية التي تأتي من الاتصال الشديد بما في الوجود من حيوان ونبات وجماد ، وما أودع فيه من الاسرار والقوى الكامنة والظاهرة

والجاعات ، وإسلامه إلى مرب ماهر حاذق يدخل في قلبه حب الطبيعة ويثقفه على أسرارها ووجوه جمالها ، وقد كان روسو من عشاق الطبيعة يرى فيها من الجلال والروعة ما لا يراه غيره . ويذهب إلى أن المدن قبور للمواهب الانسانية ، ينهدم فيها بناء الجسم وتفسد فيها القوى العاقلة والأخلاق الفاضلة .

كتاب إميل والتربية السلبية

كان للمربين ورجال الدين آراء في طبيعة الطفل وتربيته تخالف آراء روسو كل المخالفة ، كانوا يرون أن الطفل بطبيعته شرير ، وأن الخير إنما يأتي له على يد الانسان الذى يصرف جهده في سبيل تقويمه وتثقيفه . وقد بنوا على مذهبهم هذا أن التربية إنما وضعت لتستأصل من الطفل طبيعة الشر وجذور السوء التى خلقت معه ، وتغرس في مكانها طبيعة فاضلة . فالتربية عندهم إيجابية . أما روسو فقد ذهب الى غير مذهبهم وقرر رأيه واضحاً جلياً في أول سطر خطه في كتابه إميل . قال : « كل شئ حين صدوره من الصانع جل شأنه يكون حسناً وجميلاً ، فإذا صار الى يد الانسان أصبح سيئاً وقيحاً » . فأنت تراه يذهب الى أن الطفل خير بطبيعته ، وأن الشر إنما يأتي له على يد الانسان . وقد بنى على مذهبه هذا أن التربية إنما وضعت لتحول بين الانسان والفساد ، ولتسير به في طريق الخير الذى سارت فيه طبيعته حين بدء خلقه ؛ فالتربية الأولى عنده سلبية . قال : « يجب أن تكون التربية الأولى سلبية محضة ، فلا تتضمن تلقين حقيقة من الحقائق ، أو غرس فضيلة من الفضائل ، وإنما تعمل على حفظ القلب من الرذيلة والعقل من الخطأ » .

لم يرد روسو بالتربية السلبية ألا تكون هناك تربية مطلقاً في السنوات الاولى من حياة الطفل كما قد يتوهم بعض الناظرين ؛ وإنما أراد أن تكون التربية الأولى مخالفة لما كان معهوداً في زمنه . وقد أوضح فكرته هذه إيضاحاً أكثر في رده على النقد الذى وجهه الكُتَّاب الى كتاب إميل ؛ قال : « إنى أقصد بالتربية الإيجابية تلك التى ترمى الى تكوين عقل الطفل في غير أوان التكوين ، والتى ترمى الى تعليم الطفل واجب

الرجال ، أما التربية السلبية في مذهبي فهي تلك التي تعمل على تنمية الحواس التي تعتبر أبواباً للعلم قبل أن تعمل على تلقين العلم نفسه . حقاً إنها لا تغرس في الطفل فضيلة ولكنها تحول بينه وبين الرذيلة . كذلك لا تدخل في عقله حقيقة من الحقائق ولكنها تسد عليه باب الخطأ وتعصمه من الزلل . إنها تستميل الطفل الى السير في الطريق الذي يقود الى الخير متى بلغ السن التي يستطيع فيها معرفة الخير وإدراك أسرار الوجود .

مباحث كتاب إميل

طمن روسو في كتابه هذا على طرق التربية المتبعة في زمنه ، وبرهن على فسادها وبين وجوه الأخذ بمبادئه الطبيعية في تربية طفلٍ خياليٍّ دعاه إميل ، من ساعة ميلاده الى أن يصير رجلاً مستقلاً يعتمد على نفسه في كل شأن من شئون الحياة . وقد قسم الكتاب الى خمسة أجزاء : الأول في حاجات المولود وفي واجب الأمهات . الثاني في تربية الأطفال من السنة السادسة الى الثانية عشرة . الثالث في تربيتهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة . الرابع في التربية الخلقية من الخامسة عشرة الى العشرين . الخامس في تربية البنت التي يريد لها لتكون زوجاً لإميل فيما بعد .

(١) الكتاب الأول في تربية إميل من مبدل مولده إلى سنته الخامسة : يتضمن هذا الكتاب طعناً شديداً على مألوف الناس في ذلك العهد من تقييد حركات الطفل الطبيعية بإلباسه المناطق والقلانس ، وتدثيرة بالادثرة التي تعوق حركته قليلاً أو كثيراً . ولقد عاب المؤلف فيه ما جرث عليه التربية من تقييد حرية الأطفال وإخضاع غرائزهم وميوهم الطبيعة ، وندد بحياة الأطفال في المنازل بعيدين عن جمال الطبيعة وهوائها الطلق النقي . ورأى ألا يعاقب الطفل على ذنب جناه في حداثة سنه قبل أن يعرف معنى الخطأ ، وقبل أن تتولد فيه القدرة على إدراك أسباب ما ينزل به من العقاب .

ومن مبادئه المنثورة في هذا الجزء أن ينقل الطفل بعد ولادته الى الريف ، ليعيش في أحضان الطبيعة بعيداً عن المدنية وآثارها المفسدة للأخلاق والآداب ، وأن يسمح

بالماء الساخن والمفاتيح والبارد ، حتى لا يتعود ماء بدرجة حرارة خاصة ، لأن التعود في رأيه قانون تأباه الطبيعة . وقد حث على العناية بالألعاب الرياضية والتمارين البدنية ، فإن فيها صحة الأبدان ، وفي صحة الأبدان سلامة العقول وكمال الأخلاق ؛ قال : « الجسم الضئيل الضعيف كثير الأمر والنهي ، والجسم السليم القوى كثير الطاعة والالتقياد » . وقال : « الضعف مثار الشرور ومنبع الفساد ، ولن يكون الطفل شريراً حتى يكون ضعيفاً . فمن أراد أن يرى في طفله خلقاً جميلاً وطبعاً قوياً ، فعليه أن يتعهد بدنه بما يقويه وينمي » .

يكاد النول في هذا الجزء يكون مقصوداً على نشأة الطفل الجسمية ، أما نشأته العقلية والخلقية فيرى روسو ألا يعنى بهما كثيراً في هذا الدور من الحياة ، حتى لقد أوجب ألا يُعَلِّمَ الطفلُ من الألفاظ إلا ما يحمل إليه معاني مألوفة واضحة في ذهنه . قال : « ان الطفل ليضره أن تكون ألفاظه أكثر من معانيه وأن يكون كلامه أكثر من تفكيره » .

(٢) الكتاب الثاني في تربية إميل من سنته الخامسة الى الثانية عشرة . وضع « روسو » هنا مبادئ تسير عليهما التربية في هذا الدور : أولها أن تكون التربية سلسلة ، وثانيهما أن تأتي التربية الخلقية عن طريق النتائج الطبيعية . وبمقتضى المبدأ الأول يطعن روسو على ما كان مألوفاً في زمنه من العناية الشديدة بتلقين الأطفال قضايا العلوم ومسائل الفنون ، وينقم من الذين يعملون في هذا الدور على صوغ عقول الأطفال وتعليمهم اللغات الأجنبية والتاريخ وتقويم البلدان . ويرى فوق ذلك ألا يتعلم الطفل القراءة في هذه السن ، فإنها تنقص عليه معيشته وتحرمه التمتع بأزمان طفولته .

بينما يحجر روسو بآرائه المتقدمة تراه من جهة أخرى يرفع صوته عالياً وينادى بتربية الحواس وتمارين أعضاء البدن في هذا الدور فإنه أليق أدوار الطفولة بذلك ، لأن الطفل فيه تشتت رغبته الى تحريك ساقيه وذراعيه ، ويكثر ميله الى استعمال حواسه في تعرف الأشياء وإدراك خواصها ؛ قال : « تصل اليها الحكمة والفلسفة بادئ بدء عن

طريق أيدينا وأرجلنا وحواسنا ، فإذا أردنا أن نتعلم التفكير وجب علينا أن نبدأ بتمرين أعضاء البدن ، فإنها في الحقيقة أسباب العلم ووسائل الإدراك . ولن يكون تمرين الأعضاء سهلاً هيناً حتى يلبس إميل ملابسه قصيرة خفيفة مرسلّة غير مشدودة ، وحتى يتعود احتمال الحر والبرد ، ويسير في مختلف الأجواء عارى الرأس . وعلم المربي أن يدرّب الأطفال في السباحة والجري والوثب ، ويمرّن حواسهم جميعها ولا سيما حاستي السمع والبصر ، فيعلمهم الغناء والرسم والهندسة التكوينية ، فإن الأول يساعد على معرفة النغمات والتمييز بين نبرات الأصوات ، أما الثاني والثالث فيساعدان على تعويد الطفل الملاحظة الصادقة والنظر الصحيح .

ولما كان إميل لا يستطيع الفرار من معايشة الناس ومخالطتهم في هذه السن ، وجب أن يتعلم شيئاً من آداب السلوك والمعايشة ، لا على أنها دروس تهذيبية مقصودة ، وإنما يتعلمها عرضاً وبطريق النتائج الطبيعية ، فانه في هذه السن لا يفهم النصيح والارشاد . فإذا أفسد إميل شيئاً من أثاث المنزل وأمتعته ، فدعه يقاسى النتائج المرة التي تنتج عن عمله . وإذا كذب عليك مرة فلا تنصحه ولا تعاقبه ، وأظهر له بعد ذلك أنك لا تثق بأخباره ، وانك أصبحت لا تعتقد صدق ما يقول وإن كان حقاً . وإذا اقتلع شجرة من الحديقة ليغرس في مكانها شجرة ورد يهواها ، فدع البستاني يجازيه على عمله بمثله . وبهذا يعلم إميل أن للآداب حرمة لا تنتهك ، وأن للمعاشرين والخطاء حقوقاً لا تستباح .

(٣) الكتاب الثالث في تربية إميل من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة : هذا

هو دور النشأة العقلية ، وهو الدور الذي ينبغي أن تشتد فيه العناية بتحصيل العلم . ولما كانت مداه قصيرة وكانت العلوم التي يرغب في تحصيلها كثيرة متنوعة ، رأى روسو ألا يعلم الطفل علماً من العلوم ما لم تكن له منفعة ظاهرة في حياته ، حتى لقد ذهب الى أكثر من ذلك ، وجهر بالآ لا يعلم الطفل من هذه العلوم النافعة إلا ماله ميل اليه ورغبة شديدة في تحصيله . وهو مبدأ قدره المربون في هذه الأيام حق قدره ونال على أيديهم من

المعاذدة ما لم ينله في حياة صاحبه . ولقد بنى روسو على مبدئه هذا أن أفضل العلوم التي يصح اختيارها للطفل هي العلوم الطبيعية على شريطة أن يكون تعليمها آتياً من ممارسة الأشياء ، ومأخوذاً عن الطبيعة ذاتها ، لا عن الكتب والسنة المحاضرين والخطباء . فيجب أن يتعلم إميل بمشاهداته وتجاربه الخاصة تأثير الحرارة والبرودة في الأجسام الصلبة والسائلة ، حتى إذا تم له ذلك أصبح قادراً على فهم مقياس الحرارة وغيره من الآلات الكثيرة . وهنا يوازن روسو بين الطرق المألوفة في الاستعانة على إلهام التلاميذ على الفلك وتقويم البلدان بالكرات والمصورات الجغرافية التي تضل الأفهام أكثر مما تهديها ، وبين طريقته الطبيعية في تعليم هذين العلمين بالرجوع إلى تحريك رغبات الأطفال واستمالتهم إلى ملاحظة الشمس وقت شروقها ووقت غروبها في الفصول الأربعة ، وإلى التأمل في مشاهد البيئة التي يعيشون فيها

في هذا الدور يرى روسو ألا يعلم إميل شيئاً من التاريخ أو قواعد اللغة ، وألا تستخدم الكتب في تعليمه اللهم إلا كتاب « روبنسن كروسو » فإن فيه صورة كاملة من صور الحياة الطبيعية للإنسان ، ومن النافع لإميل في هذا الدور أن يؤخذ ببعض الأعمال اليدوية كالنجارة وغيرها ، وأن يعلم صناعة من الصناعات لا رغبة في تحصيل الصناعة فحسب ، ولكن ليذهب عنه فوق ذلك ما يتولد في بعض الفتيان من احتقار الصناعات ، والخط من شأن القائمين بها .

(٤) الكتاب الرابع في تربية إميل من السنة الخامسة عشرة إلى العشرين : إلى

هنا نال إميل حظه من تربية الجسم والعقل ، ولم يبق له إلا أن يأخذ نصيبه من تربية القلب ، وهي التربية الدينية الخلقة . نعم إن إميل إلى هذا الوقت لم يدرس تاريخاً ولا آداباً ولا نحواً ولا لغة غير لغته ، ولم يصل في العلم إلى درجة راقية ، إلا أن القدر اليسير الذي حصله ، يُحسِّنُ فهمه ويُجيد معرفته . أضف إلى ذلك أنه قد أصبح وله عقل مضى يهديه في المناهج القائمة والمسالك المظلمة .

إن أهم أعمال التربية إنما تبتدئ في هذا الدور ، إذ أن إميل إلى هذا الوقت لم

يتصل بالناس اتصالاً مباشراً ، ولم يُعَدِّد نفسه للدخول في الجماعات ، ولم يعرف كيف يصانع بنى جنسه ، أو كيف يكون السلوك والآداب ؛ وفوق ذلك لا يعرف ربه ولا نفسه . لذلك يجب أن تكون تربيته في هذه السن خلقية دينية حتى يدرك صلته بالناس ورباطته بخالقه .

ويجب في التربية الخلقية ألا يركن المربي إلى النصيح والإرشاد فانهما لا يجديان فتيلاً ، وإنما عليه أن يسلك الطرق العملية القويمة ، فيدفع الغلام إلى مخالطة الناس ومعاملتهم ، وينصب نفسه قدوة حسنة له ، ويقرأ عليه الأمثلة الطيبة من تاريخ الصالحين . ويدعوه إلى مطالعة وجدانه وعواطفه في كل عمل يأتيه ، فإن الوجدان منبع كثير من مكارم الأخلاق . وعليه أيضاً أن يستثير عواطف الرحمة والحنان فيه بدعائه إلى زيارة المشافي والسجون وملاجئ العجزة ، وإطلاعه على مظاهر البؤس وصنوف البلاء التي يقاسيها كثير من الناس من جوع وعُرى وآلام وأحزان ومصائب ، على شريطة ألا يكثر من ذلك وإلا أورثته العادة جهوداً وصلابة فيقسو قلبه ويضعف وجدانه .

ومن مبادئ روسو في التربية الخلقية ألا يلحق الطفل درساً في الأخلاق أو يُعَلِّم شيئاً من كتاب إذا كان في طوقه أن يتعلمه من طريق التجارب . ولا تظن أنه يرمى بذلك إلى نصرة العقيدة المخطرة التي تجنب الناس الشرور من طريق تجربتهم لها ووقوعهم في نتائج السيئة وان كانت قاسية ، فإن مذهبه صريح في أن الولد لا يسوغ له أن يجرب الشر بنفسه ليعلم نتيجته ؛ ومما قاله في ذلك : « لاشيء في الآداب إلا استطاع الوليد معرفته بتجاربه الخاصة أو تجارب غيره ، ففي الأحوال التي تكون التجارب فيها قاسية النتائج وخيمة العواقب ، لا يجوز له أن يعالجها بنفسه وإنما عليه أن يأخذ العظة من التاريخ » .

أما التربية الدينية ، فقد قال فيها : « يجب ألاّ يبتدئ إميل تربيته الدينية قبل الخامسة عشرة من عمره ، أما إذا تعجل المربي وأخذ يعلمه صلته بربه ويلقنه مسائل

الدين قبل أن يبلغ هذه السن ، فإنه يبقى جميع حياته جاهلاً ربه ، ولا تكون معرفته بالعقائد الدينية إلا معرفة تقليدية قاصرة لا تتعدى ألفاظاً يرددها ولا يفهم لها معنى . وفي الحق أن الطفل قبل الخامسة عشرة من عمره لا تقوى مداركه على فهم الأسرار الإلهية ، فإذا علم شيئاً من ذلك كان علمه به ناقصاً .

(٥) الكتاب الخامس في تربية المرأة : متى بلغ إميل سن العشرين فقد وصل الى السن التي يحتاج فيها الى المشير الذي يساكنه ويقاسمه نعيم الحياة وبؤسها ، تلك هي المرأة الصالحة والزوجة الموافقة التي يأنس بعشرتها وتأنس هي بعشرته . لذلك لم يكن عجباً أن كان الكلام في الجزء الخامس من الكتاب مقصوداً على تربية البنت تربية تجعلها مثلاً أعلى للنساء ، وتؤهلها لأن تكون خير امرأة يبني بها إميل فيسعد في جوارها وتسعد هي أيضاً في جواره . ولروسو في هذا الموضوع آراء سقيمة ربما كانت أضعف آرائه في التربية وأقلها قيمة ، فإنه هضم المرأة ، وقلل من بصيها في الحياة ، ولم يعتبرها مخلوقاً مستقلاً بذاته ، وإنما اعتبرها جزءاً مكماً لطبيعة الرجل كأنما خلقت لإسعاده وخدمته ليس غير ، ولولا ذلك ما احتيج اليها في الوجود . وعلى مبدئه هذا أوجب أن تراعى علاقة المرأة بالرجل في جميع أدوار تربيتها ؛ ومن قوله في ذلك : « يجب أن تكون تربية المرأة دائرة حول علاقتها بالرجل وصاتها به ، فعليها أن تتعلم كيف تسره وتنفعه ، وكيف تكسب محبته وتربي أولاده ، وعليها أن تعرف كيف تخدم الطاعنين في السن وتقوم بتسليتهم وتعاليمهم » .

فتربية البنت عنده مقصورة على تخريجها في تدبير منزلها وتربية أولادها وإسعاد زوجها فحسب ؛ وهو وان رأي وجوب العناية بتربيتها الجسمية ، لا يرى الغاية من ذلك إلا كسب الجمال الذي يعجب الزوج ، والصحة التي تساعد على قوة النسل .

ومن مبادئه في تربية البنت أن تتعود الطاعة وحب العمل ، وأن تتعلم الحياكة والتطريز وأشغال الإبر ، وكذلك الغناء والتوقيع على الآلات والرقص وغيرها مما يزيد في جاهلها ويكثر من إعجاب الرجال بها . أما الفلسفة والعلوم والفنون فليس لها تاريخ التربية (٣٨)

أن تشتغل بشيء منها . لأنه لا يرى فيها القدرة على مزاولة الأعمال العقلية التي يزاوها الرجال ، وبذلك تراه قد حال بين المرأة والارتقاء الفكرى الذى جعله الله حقاً شائعاً بين الرجال والنساء ، على أن العالم قد أخذ اليوم يسير فى طريق الاعتراف بما للمرأة من الحقوق ، وبأنها لا تقل عن الرجل فى شيء من كفاياته العقلية .

قيمة الكتاب

يصعب على الإنسان أن يعطى هذا الكتاب حقه أو يقدره قدره حتى يتناسى الحياة السيئة التى عاشها مؤلفه ، وحتى يتجاهل ما فى الكتاب من تناقض ظاهر ، ومغالاة غير مقبولة ، وقلة ثبات فى الرأى والفكر ؛ فاذا أعرض عن ذلك رأى الكتاب غزير المادة مملوءاً علماً وحكمة وأدباً ، ووجد كل مثلبة فيه مصحوبة بحسنات تشفع لها ، والحسنات يذهبن السيئات . أضف الى ذلك أن الفضل فى كل انقلاب حديث فى التربية يرجع اليه ، فهو أصل الحركات العلمية والاجتماعية والنفسية فى التربية ، وهو الأساس الذى بنى عليه بستالوتزى وفروبل وغيرهما من أئمة التربية . لذلك كان روسو بطل المصلحين وشيخ الكتاب الذين كتبوا فى التربية الحديثة .

أساس نشأة التربية فى القرن التاسع عشر

لو تأملنا مبادئ روسو فى التربية ، وأجلنا النظر فى آرائه ومذاهبه ، لاستطعنا أن نقول إنها أساس التربية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، فروسو هو الذى جهر بفساد النظام القديم وبين مثالبه وعيوبه ، وهو الذى تنبأ بمصير التربية وطرائقها الحديثة . وهو الذى وضع الأساس لكل من الحركات المتنوعة التى ظهرت فى التربية فى القرن التاسع عشر . ولا نغالى إذا قلنا إنه الوحي الذى نفت فى صدور المصلحين الذين أتوا بعده ، فاقنفوا آثاره وانتفعوا بحكمته ، واتخذوا من أخيلته وأحلامه حقائق أخرجوها الى دائرة العمل ، فأعلوا بها منار التربية ورفعوا من شأنها .

(١) روسو والحركة النفسية في التربية

كان المربون قديماً يضعون طرقاً ثابتة للتفكير والعمل ، ثم يأخذون الحدث بها جبراً وقسراً من غير أن تكون شائقة له . على أن منهم من كان يرى أن العمل لا تكون له قيمة في التربية إلا اذا كان ثقيلاً على نفس الطفل مُبْغِضاً اليه ، فجاء روسو وقضى على كل ذلك ، وأوجب أن تتمشى التربية مع غرائز الأطفال وميولهم الطبيعية ، ودعا الى العناية بدراسة الطفل وطبائعه قائلاً إنها الأساس الصحيح الذي يجب أن تقوم عليه التربية ، فالمعلم الذي يعالج تهذيب الأطفال وليست له خبرة بطبائعهم ، يسير على غير هدى في صناعته ، وفي الغالب لا يصادف في مهنته نجاحاً . واليك ما قاله في مقدمة كتابه إميل : « ان كثيراً من المربين الحازمين ليخطئون مواقع التربية الصحيحة إذ يأخذون الأطفال بما يحتاج الرجال الى معرفته ، وَيَغْفُلُونَ عما تستطيع عقول الأحداث فهمه وادراكه ، وانهم ليخطئون كذلك حين يتطلبون في جسوم الأطفال عقول الرجال ، ولا يفكرون أصلاً في حقيقة الطفل قبل أن يصير رجلاً » . ولقد كان لهذا النقد الصحيح الأثر الحسن في اهتمام أئمة التربية الحديثة بالطفل ، وجعله المحور الأصلي الذي تدور عليه كل مناقشة في التربية .

ومن مبادئ روسو في التربية اتخاذ التشويق وحب الاطلاع أساسين للدراسة وتحصيل العلم ، ولذلك عده الناس أول من فتح الطريق الذي سار فيه هربارت وأتباعه . وآليه يرجع الفضل في توجيه أنظار المربين الى العناية بتربية أعضاء البدن عامة والحواس خاصة في أيام الطفولة الأولى ، واتخاذ ذلك أساساً لنهضة العقل وتحصيل العلم فيما بعد . وهذا هو الأساس في دروس الأشياء التي اهتم بها « بستالوتزي » وأشياعه من بعده ؛ فلا عجب إذاً إن عدَّ روسو أبا الحركة النفسية في التربية وبطلها العظيم .

(٢) روسو والحركة العلمية في التربية

رأينا روسو فيما تقدم يدعو الى الطبيعة والاهتداء بهديها ، ويغض من قيمة الكتب في التعليم ، ويفالى باجتلاء مشاهد الطبيعة وتفهم أسرارها ، ويبالغ فيما لدراسة

الأشياء الطبيعية من النفع الجليل في تربية الأحداث ، ويحض على إدخال التاريخ الطبيعي في مناهج الدراسة ، والتوسع فيه الى درجة لم تكن معروفة من قبل . لذلك لم يكن عجباً أن عدده الناس من أكبر المؤسسين للحركة العلمية في التربية .

(٣) روسو والحركة الاجتماعية في التربية

قرر روسو في كتابه « إميل » كثيراً من المبادئ التي يصح اعتبارها أساساً للتربية الاجتماعية ، فقد ذهب الى أن التربية الصحيحة هي التي تُخَرِّجُ الإنسان في صناعة من الصناعات ، وتعرس في قلبه عواطف الرأفة والرحمة بينى جنسه ، وتعورِّده فوق ذلك مساعدة الضعفاء الذين يحتاجون الى مساعدته ومعونته . ولذلك عدده المؤرخون مؤسس الحركة الاجتماعية في التربية . فالأعمال الصناعية التي نصح بها « بستانوتزى » ، وغرض التربية الأدبي الذي ذهب اليه هربارت ، والتعليم الخلقى الشائع الآن في مدارسنا ، والدعوة الى تربية العجزة والمقعدين وغيرهم من ذوى العاهات ، كل ذلك له أصل يُرجعُ اليه في كتاب إميل .

انتشار مبادئ روسو في المدارس

رأينا ما لروسو من اليد الطولى في وضع الأساس لأنظمة التربية الحديثة ومناهجها وطرائقها ، ورأينا كيف كان الإمام الذي اهتدى بهديه بستانوتزى وهربارت وفروبل وسبنسر وغيرهم من رجال التربية ، إلا أن آراءه هذه بقيت مخبوءة زمناً طويلاً لا أثر لها في معاهد التعليم ، اللهم إلا أثراً ضئيلاً . ففي فرنسا حيث كان لهذا البطل أكبر تأثير في الأفكار والعواطف ، قد استقبل الناس كتابه بشيء من الريبة والخوف ، ورأوا فيه خروجاً على التقاليد المحترمة في المملكة ، ولذلك حاولت الحكومة اعتقال كاتبه إلا أنه لاذ بالفرار . ومهما يكن من شيء فإنه نبه الأفكار على نقص التربية السائدة ودلَّ على عيوبها ومثالبها ، ولم يلبث الناس طويلاً بعد ذلك حتى قاموا يطالبون بوضع نظام وطني للتربية تسير عليه المدارس كما طالبوا بجعل التربية عامة وبالجان . وفي إنجلترا لم تنل مبادئه إلا معاضدة يسيرة . أما ألمانيا فكانت أسرع الممالك الى الانتفاع

بآرائه والأخذ بمبادئه ، والفضل في ذلك يرجع الى « بزداو » و « سُلزُمان » و « كَامْب » وغيرهم من رجال التربية العاملين ، فإنهم أسسوا المدارس والمعاهد وساروا فيها على النحو الذي رسمه روسو في كتابه إميل .

(٢) بزداو

مرب ألماني شهير ، وزعيم من زعماء التربية المصلحين ، ولد في همبرغ سنة ١٧٢٣ وتوفي سنة ١٧٩٠ . وكان وهو صغير صاحب ذكاء وفطنة . ولما رأى أن والده - وكان صانع غداثر - لا يهتم لشأنه ولا يأبه لذكائه ، فر من وجهه واشتغل خادماً في منزل رجل من الأعيان ، فظهرت لسيدته مقدرة العجيبة وذكاءه النادر ، ولما عرف هذا السيد حقيقة أمره سعى في إصلاح ما بينه وبين أبيه ، فرجع الى منزل أهله ودخل مدرسة الآداب في همبرغ ، وبعدها دخل جامعة « لِيْبْرِك » حيث أكب على دراسة أصول الدين . ولما أتم دراسته فيها رأى الناس فيه زيغاً عن العقيدة الأرثوذكسية فلم يرتضوه قسيساً ، فترك الكنيسة وأقبل على صناعة التعليم ، فعُود اليه بتربية أطفال « الهِرْتُون كُولِن » ، فأظهر كفاية نادرة المثال ، وقد اتبع في تعليم هؤلاء الأطفال الشرفاء طريقة المحادثة واللعب ، مستعيناً على ذلك بما في البيئة من أشجار وأنهار وطيور وصخور وأحجار وغيرها من أشياء الطبيعة الكثيرة . ففي تعليم اللغة اللاتينية مثلاً كان يشير إلى الأشياء ويعلم الأطفال أسماءها ويحدثهم في شأنها . وقد صادفت هذه الطريقة نجاحاً كبيراً ، حتى أصبح الأطفال في مدة قصيرة يعرفون اللغة اللاتينية فهمًا وكلامًا كما يعرفون لغتهم الوطنية .

في سنة ١٦٦٣ تمكنت مبادئ روسو من نفس « بزداو » وازداد إعجاباً بها ، وأصبح إميل قرآنه الذي يؤمن به ويعتقده . ولقد ساءه أن رأى حال التربية في ألمانيا كما كانت في فرنسا فاسدة سيئة الطرائق والمناهج . كانت غرف الدراسة مظلمة قليلة الهواء ، والتربية البدنية مهمة كل الإهمال ، وكان التعليم ثقيلاً والنظام قاسياً ، وكان الأطفال يعاملون معاملة الرجال ، حتى لقد كانت مظاهر الرجولة تراعى في ملابسهم وجميع شئونهم .

ففي عهد لويس الرابع عشر كانت أطفال الطبقة الموسرة يأزمون ترجيل شعورهم وتعطيرها ودهنها ، وكانوا يلبسون ملابسهم على النحو الذي يلبسه الرجال ، يلبسون الجوارب الحريرية والسراويل الضيقة ، ويشدون الحناجر على أوساطهم الى غير ذلك مما يعد عذاباً وجحيماً للأطفال الذين يميلون الى الحركة والنشاط . رأى «بزداو» هذه الحال فطعن عليها وبين مثالها ، ووهب نفسه لإصلاحها على النحو الذي أشار اليه روسو في تربته الطبيعية .



في سنة ١٧٦٨ ألقى محاضرة موضوعها المدارس والعلوم الدراسية وآثارها في إسعاد الأمم وإنهاض الشعوب ، ودعا فيها الأمراء ورجال الدين وأهل الثروة والجاه إلى مساعدته ، وطلب اليهم أن يمدوه بالمال الذي يحتاج اليه في إصلاح التربية في البلاد . واقترح في محاضرته أن تكون المدارس غير تابعة لدين أو مذهب بعينه ، وأن يدير حركة التعليم في البلاد مجلس وطني خبير بشئون التربية ، وأن يكون التعليم عملياً في

الأزياء في أوائل القرن الثامن عشر ، وهي تشرح كيف كان الاطفال يظهرون في صور مصغرة للرجال

مناهجه ، ساراً في طرائقه ، ووعد أن ينشر كتاباً في التربية الابتدائية يضمه آراءه ويبين فيه وجوه الإصلاح التي يريد بها ، فنالت آراؤه استحساناً عظيماً ، وحازت قبولاً في جميع القارة الأوروبية ، وآزره كثير من الملوك والأمراء والأعيان وكثير من الذين يعنون بشئون التربية ، فأعانوه بالمال وجمعوا له في وقت قصير ما يُربى على عشرة آلاف ريال يستعين بها على إنفاذ آرائه . وبعد سنوات ست نشر «بزداو» كتابه الذي وعد به وسماه « التربية الابتدائية » ، وشفعه بكتاب آخر في طرق التربية لإرشاد الآباء والأمهات .

كتبه

(١) كتاب التربية الابتدائية : ظهر هذا الكتاب في أربعة أجزاء ، وفيه مائة من الصور والرسوم التي وضعت لإيضاح موضوعاته ، وقد ضُمنَ الكتاب كثيراً من مبادئ روسو الطبيعية ، وشمل جزءاً عظيماً من آراء كومنيوس وغيره من رجال التربية ، وحوى كثيراً من دروس الأشياء النافعة المفيدة .

(٢) كتاب الآباء والأمهات في طرق التربية : تضمن هذا الكتاب أيضاً كثيراً من آراء روسو في التربية الطبيعية ، وبين فيه « بزداو » أن الأطفال يميلون بطبيعتهم إلى الحركة الجماعية وسماع الأصوات ، وأوصى باستخدام هذين الميلين في التربية .

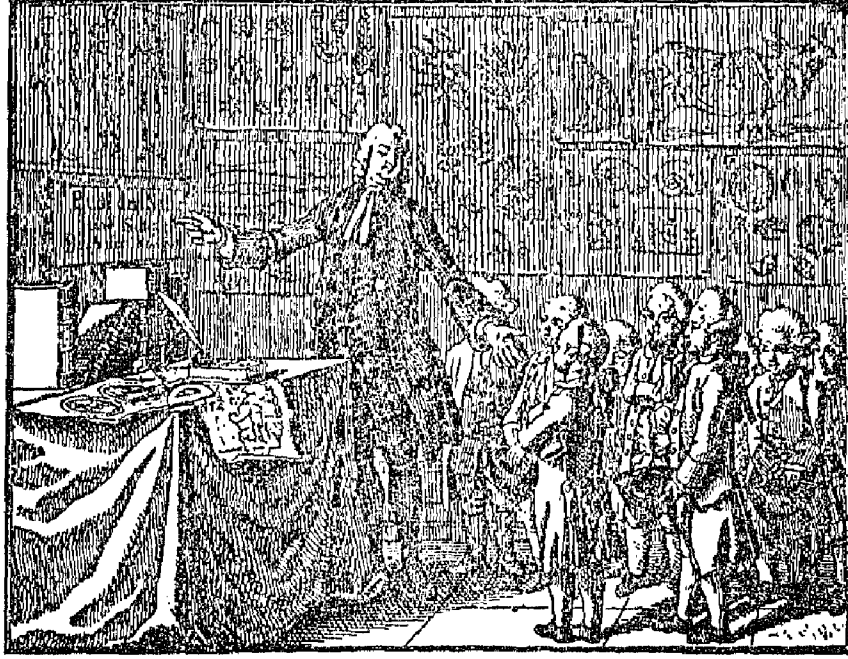
(٣) كتب الأقا صيص للاطفال : بعد أن أخرج « بزداو » كتابيه السابقين ، اشترك هو وسُأزْمان وكامب وغيرها ، وألفوا جملة من كتب الحكايات والأقا صيص تفيد الأطفال وتناسب مداركهم ويلذ لهم قراءتها ، وضمنوها كثيراً من الموضوعات التهديبية والدينية والعلمية والطبيعية . وأشهر هذه الكتب وأحسنها كتاب « رُبْنُصُون كُرُوزو » للمبتدئين ، وهو الكتاب الذي طبعه كامب سنة ١٧٧٩ ، وظنى بالقارئ أنه لا يزال يذكر رأى روسو في قراءة هذا النوع من الكتب .

مدرسته . مناهجها وطرائقها في التربية

أفلح بزداو في استمالة « لِيُوبُلْد » أمير « دِسُو » إلى آرائه ومذاهبه في التعليم ، ولقد كان من إعجاب هذا الأمير به أن عزم على تأسيس مدرسة يتمكن فيها بزداو من تجربة آرائه وإخراجها إلى دائرة العمل . ولم يلبث أن أسس المدرسة في دِسُو ودعاها « حمى الإنسانية » ، فأقبل بزداو على العمل فيها ، ودعا بعض رجال التربية إلى مساعدته ، فقدم إليه كامب وسُأزْمان وغيرها من الرجال العاملين ، فقاموا إلى جانبه وساروا معه على مبادئه ، وفي زمن قصير حاز المعهد شهرة فائقة في جميع القارة الأوروبية .

وكانت القاعدة العامة التي اتخذها هؤلاء المصلحون أساساً لأعمالهم أن يكون التعليم جارياً على قوانين الطبيعة ، ومعنى ذلك عندهم أن تستمال غرائز الأطفال وميولهم

الطبيعية ، وأن يربي الأطفال على أنهم أطفال حقيقة لا رجال في صور أطفال ، وأن يكون تعليم اللغات من طريق المحادثة والمطالعة بعد ذلك ، لا من طريق دراسة القواعد النحوية كما كان مألوفاً في الأزمان السابقة ، وأن تجد التمرينات البدنية والألعاب



مدرسة طبيعية

محلاً واسعاً في تربية الطفل ، وأن تؤسس التربية الأولى على الحركات الجماعية وسماع الأصوات ، وأن يؤخذ كل طفل بنصيب من الأعمال اليدوية كالنجارة والبرادة ودرس الغلال على الطريقة التي ذكرها روسو في الجزء الثالث من كتابه إميل ، وأن تعطى اللغة الوطنية نصيباً من العناية في التعليم أوفر من نصيب اللغات القديمة ، وأن يكون التعليم عملياً دائراً حول الحقائق المحسوسة والأشياء الملموسة ، لا مقصوراً على ألفاظ تكرر وتعاد .

ولهذا المصلح طرق شائعة في تعليم اللغات ، فقد كان يعتمد على المحادثة واللعب والصور والرسوم والقراءة في الكتب المشوقة ، وفي تعليم الهندسة كان يعود الأطفال رسم الأشكال رسماً متقناً بديعاً ، وكان يبتدىء دراسة تقويم البلدان بالمنزل ، ثم ينتقل منه إلى البيئة التي تحيط به ، ومنها إلى المدينة ، ومنها إلى المملكة ثم القارة ، وهكذا ينتقل من دائرة إلى أوسع منها .

صبلغ نصيب المدرسة من النجاح

كان عدد التلاميذ في هذه المدرسة قليلاً في بادئ الأمر ، لأن التعليم فيها كان تجريبياً ، ولأن الآباء كانوا لا يرغبون أن يكون أبنائهم مواضع لتجارب غير موثوق بنتائجها في التعليم ؛ وعلى الرغم من ذلك أخذ عددها يزيد مع الأيام حتى وصل إلى خمسين تلميذاً . وقد أكثر العظماء والنبلاء من زيارتها فسرهم ما شاهدوه من النجاح العظيم ، وزاد إعجابهم بها حين رأوا ما كان يبدو على وجوه التلاميذ من النشاط والاقبال الشديد على التعليم . قال كانت : « لا أعد هذه المدرسة عاملاً من عوامل الإصلاح البطيء في التربية ، وإنما أعدها عاملاً من عوامل الانقلاب الفجائي السريع » . ولكن - وأسفاه - قد قدر لهذا المعهد العظيم ألا يعيش طويلاً ، فقد سقط وانفض الناس من حوله سريعاً وأغلقت أبوابه سنة ١٦٩٣ قبل أن يمضي على تأسيسه عشرون سنة ، ولهذا أسباب كثيرة منها ما يأتي :

(١) كان آباء التلاميذ وأولياء أمورهم في ريبة من تلك التربية العامة التي لا تتبع ديناً ولا مذهباً بعينه ، فان هذا النوع من التعليم كان جديداً ومخالفاً للمألوف في أوقاتهم ، ولهذا لم يقبل على المدرسة إلا نفر قليل .

(٢) غالى «بزداو» في تقدير مدارك الأطفال فوضع منهاجاً واسعاً لا يستطيع التلاميذ دراسته فناءوا بحمله ، ولقد اعترف بخطئه هذا واضطر إلى اختصار منهاجه فيما بعد .

(٣) لم يكن «بزداو» من رجال الادارة الحازمين ، ولم تكن له كفاية في إدارة مثل هذا المعهد العظيم ، فقد كان منقلباً كثير الأهواء مضطرب العزيمة ، يتابع الخيال أكثر مما يتابع الحقيقة ، وكان فوق ذلك ضعيف الثقة بمن معه من المعلمين ، يرتاب في كفايتهم ويشك في أمانتهم ، والناس اذا تساندوا في عمل فالثقة أساس نجاحهم ورائد فلاحهم ، فإذا ضاعت الثقة ، فليس لهم إلا الفشل والخذلان .

سقط هذا المعهد بعد أن أمّل الناس فيه أملاً واسعاً ، وقدروا له النتائج الباهرة والنجاح العظيم . نعم سقط ولكن بقي نوره ساطعاً وسراجاً لامعاً ، فقد انبث رجاله

فى جميع أنحاء المملكة الألمانية يحملون المبادئ الحديثة فى التربية ، ويستميلون الناس إلى طرائقهم فى التعليم .

لم يبتدع «بزداو» فى التربية شيئاً كثيراً ، ولكنه بذل الوسع فى إخراج آراء المربين قبله إلى دائرة العمل ، وبفضله أصبحت مشا كل التربية سهلة الحل قريبة الفهم . ولو لم يكن له إلا تجاربه التى عالجها فى مدرسته «حى الانسانية» لاستحق بها وحدها أن يتبوا مكانه عالياً بين زعماء التربية فى القارة الأوروبية . نعم كانت تجاربه فجة غير ناضجة ينقصها شئ كثير من الروية والثبات ، إلا أنها مع ذلك أحدثت نهضة كبيرة فى التربية . فبفضلها عنى المربون بأبنية المدارس وتجهيزها بالأجهزة النافعة فى الدراسة ، وبفضلها اهتم الناس بإعداد المربين والمعلمين وإصلاح طرائق التعليم ، وهى التى قضت على كثير من الأنظمة القاسية والقوانين الشديدة ، واستبدلت بها أنظمة أخرى أقل قسوة وعنفاً .

